الدكتور مارسيل كاريه

ذكريات

الشيخ

أحمد بن مصطفى العلاوي

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للطبعة العلاوية

سنة 1987

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

من انصاف المرء الاعتراف بمزايا الرجال وخصالهم خاصة عندما يتعلق الامر بكتابة نص تاريخي او التعرض لدراسة شخصية ما، فانه يصبح ساعتها امام الامر الواقع الذي لا محيد عنه، ويكون كذلك مطلوبا باستحضار امانة النقل والتعرض للاحداث مهما كلفه ذلك، ولو كان الامر على حساب عواطفه وميولاته الشخصية.

ولكم عانت الامم قاطبة من الفتن المذهبية وصراعاتها التعصبية التي ادت بها الى الدمار، تلك الفتن التي كانت من صنع اناس نسبوا انفسهم الى العلم وهو منهم براء.

فراحوا يعلنون الحرب على كل من خالفهم وعارض اديولوجياتهم وكفى بالتاريخ شاهداً لمن كانت العصبية المذهبية سبباً في نهايتهم.

ورجل كالشيخ احمد بن مصطفى العلاوي رحمه الله، الذي يستعرض الكاتب لمحة من حياته بكل امانة وصدق عاش للسلام حتى جعله غاية في طريقه، وكان من ضمن ما قاله للدكتور (مارسيل كاري) عن تلاميذته انهم «يلتمسون طريقهم الى السلام الباطني» ليصفي سرائرهم من كل غل او ضغينة تجاه اي كان.

فالشيخ العلاوي كان يدرك بكل وعي مدى خطورة التعصب المذهبي والكاتب نفسه عندما يتكلم عن الشيخ في عرض سرد حياته تجد ان الشيء الوحيد الذي وقف امامه مشدوهاً هو دلك التسامح الناذر الذي كان يتحلى به الشيخ فلم يدر في خلده البتة ان يعارض احدا مهما كان مذهبه بل كان يبدي رأيه ولا يجادل الا بالحسنى،

عـاملاً بقوله تعـالى : **ادعوا الى سبيـل ربك بـالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن.**

«وكان فهمه للاسلام يتميز بنفس التسـامح واتسـاع الافق ولم يكن يصر الا على ما هو جوهري منه...» (١)

وان كل من جـالسه او تحـادث معه الا ويجد فيه من الليـونـة وحسن الحوار وودية التبادل في الاراء مالا يتصور في ذهن.

وصاحب هذا الكتاب الدكتور (مارسيل كاري) ليعتبر بحق اصدق واعدل شاهد يعرب بكل امـانة عن شخصية الشيخ العلاوي الفذة، خاصة وانه ليس من اتباع الشيخ ولا ممن يتمذهب بمذهبه، بل كل ما في الامر انه كان الطبيب المحبب لدى الشيخ العلاوي لمـا كـان يتحلـى به من التواضع وخفض الجنـاح بعيداً كل البعد عن الانفة والكبرياء اللذان يميزانه عن كثير من الاروباويين خـاصة تعـاطفه الجياش تجاه المسلمين الشيء الذي ادى به الى فتح عيـادة طبية بحي تجديت بمستغـانم تتنـاسب والتقـاليد الاسلامية الجزائرية وذلك حوالي سنة ١٩١٣ يقول الدكتور كاري «ولهذا فان عيـادتي التي انشأتها بين ظهرانهم وعملت على ان توافق هواهم وطباعهم لاقت نجاحاً ملحوظاً ترامت اصداؤه الى اذني الشيخ...» (٢)

في وقت كـان هذا الدكتور يجهل حتى مجرد وجود الشيخ على حد تعبيره، ومـا ذلك الا لان الشيخ العلاوي رحمه الله كـان قليل الشهرة ان لم نقل عديمها عند فرنسا لانه لم يكن ليخدم مصـالحهـا ولا ليتودد لها.

فالشيخ رحمه الله كان يمقت السيـاسة والتداخل في شؤنهـا كل المقت وهذا مذهب اهل التصوف.

يقول الدكتور (مرسيل كاري) «وحاولت ان اعرف شيئاً من امر هذا الشخص العجيب ولكن احدا لم يستطع ان يخبرني (اي من الفرنسيين) بشيء على وجه التخصيص فالاروبيون في شمال افريقيا يجهلون جهلاً تاما تاثير الاسلام على نفوس اهله بدرجة تجعلهم ينظرون الى كل شيخ او مرابط على انه مشعوذ لا وزن له ولا اهمية. الا بقدر ما يمكن ان يكون له من نفوذ سياسي، ولما كان شيخنا هذا لايتمتع بهذا النفوذ المذكور تراهم وقد باتوا على جهل تام بأمره...» (٣)

هذا كل ما في الامر فالكاتب يكتب بكل نزاهة بعيدا عن النزاعات العاطفية والاغراض الشخصية، وأن تجد انسانا يكتب بهذه النزاهة والموضوعية فهذا من النذارة بمكان.

وحتى لا نذهب بعيدا نترك الحكم للقاريء الكريم ليقول كلمة المنصف الصادق فانه ليس من رأى كمن سمع.

والله تعالى نسأل ان يجعلنا من اولائك العاملين بمقتضى قوله تعالى :**يا ايها الدين امنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا.**

آمين

الشيخ العلاوى

ذكريات

تقابلت مع الشيخ العلاوي لاول مرة في ربيع عام ١٩٢٠ ولم يكن لقائي به لقاء عارضاً، فقد دعيت الى حضرته بصفتي طبيباً معالجاً و كنت حينئذ قد بدأت قبل ذلك بشهور قليلة في مزاولة مهنة الطب في مستغانم.

ترى اي شيء اوعز للشيخ باستشارة طبيب وهو الذي قلما علق اهمية تذكر على بلايا الجسد التافهة، ولم اختارني انا بالذات وانا النازح الغريب من بين الكثيرين ؟

ولقد عرفت الاجابة على اسئلتي هذه منه شخصياً في حينها بعد فترة قصيرة من و صولي الى مستغانم، و كنت اقمت عيادة في بلدة تجديت (١) العربية و جعلتها وقفا على المسلمين دون غيرهم، حيث كنت اقدم استشاراتي نظير اجر زهيد لمدة ثلاثة ايام كل اسبوع، و المسلمون يشعرون باشمئزاز غريزي لكل مستوصف تشرف عليه الدولة، ولهذا فان عيادتي التي انشاتها بين ظهرانهم وعملت

---

(١) مستغانم احد الامكن القليلة في الجزائر التي يعيش فيها الاوروبيون والعرب في حيين منفصلين احدهما عن الاخر. اما في مراكش فالانفصال هو القاعدة، وهناك استطاع (ليوتي) ان يفيد من الاخطاء التي ترتكب في الجزائر اما مستغانم فلقد كانت طبيعة ارضها هي التي جعلتها على ما هي عليه الآن. فهنا يفصل بين الحيين الاوروبي والعربي اخدود عميق، مما جعل كلا منهما يحتفظ بخصائصه. ويعيش في الحي الاسلامي وحده نحو اثني عشر او خمسة عشر نسمة. ويطلق عليه اسم «تيجديت». وهنا عاش الشيخ العلاوي، وهنا بنيت الزاوية مطلة على البحر. تلك الزاوية التي بفضله اشتهرت. والتي تحتوي على مقامه الذي دفن فيه. (دكتور كاري)

على ان توافق هواهم و عاداتهم لاقت نجاحاً ملحوظاً ترامت اصداؤه الى اذني الشيخ،

واستلفتت انتباه الشيخ تلك البادرة التي بدرت عن طبيب فرنسي حديث النزوح يختلف على ما يبدو عن معظم الاوربيين في انه لم يكن ينظر الى المسلمين من عليـاء كبريائه بعين تفيض بالازدراء، ولقد تطوع تلامذة الشيخ ومريده بـاخبـاره، بدون علم مني وبلا ادنى محاولة من جانبه لتقصي الحقيقة عن مظهري و اعمـالي و حركاتي و طريقتي في معالجة المرض و موقفـي المتعـاطف من المسلمين وكان من نتيجة كل ذلك ان احـاط الشيخ علماً بكل شيء عني في الوقت الذي كنتاجهل انا فيه حتى مجرد وجوده، و لقد قر قراره على ان يرسل في طلبي اثر تعرضـه لنوبة انفلونزا حـادة في ربيع ١٩٣٠،

و منذ اول لقاء لي معه داخلني شعور بأني في حضرة شخصية غير عـادية. كـانت الحجرة التي اقتدت اليهـا مثل غيرهـا من الحجرات في بيوت المسلمين، عارية من الاثاث، و لم يكن بها سوى صندوقين عرفت فيما بعد انهما كانا مليئين بالكتب و المخطوطات. و لكن الارضية كانت مغطاة من اولهـا لآخرهـا بالأبسطة و الحصر التي يسهل طيها. وهنـاك وفي ركن من الحجرة جلس الشيخ على مرتبة تغطيها بطانية، مستنداً بظهره الى بعض المسـاند، معتدلاً في جلسته متربعـاً، وقد اراح يديه على ركبتيـه. كـان في جلسته ساكنا سكون القديسين طبيعياً لأبعد الحدود.

واول ما راعني فيـه هو ذلك الشبه الكبيـر بينه وبين التصورات المعتادة للمسيح. فملابسه قريبة الشبه ان لم تكن مطـابقة تمـاماً

لتلك الملابس التي لا بد وان المسيح اعتاد ان يرتديها. وذلك الغطاء الأبيض الرقيق الذي وضعه على رأسه والذي يكتنف وجهه. منظره بوجه عام ـ كل شيء فيه كان يتآمر على توكيد هذه الشبه واظهار هذا التطابق. وخطر لي ان المسيح لا بد وانه كان يبدو على هذه الصورة عند ما كان يستقبل تلامذته طيلة فترة اقامته مع مارتا ومـاريـا

و اوقفتني الدهشة للحظة حائراً عند عتبة الدار. كما انه هو بدوره ثبت بصره على وجهي، ولكن في نظرة تائهة، ثم قطع السكون بدعوته لي بالدخول مستخدماً نفس كلمات الترحيب المعتادة. وكان سيدي محمد ابن اخيه يعمل مترجماً له. ذلك لأن الشيخ على الرغم من فهمه واتقانه الجيد للفرنسية كان يجد بعض الصعوبة في التحدث بها. بل انه كان يتظاهر بجهله التام لها في حضرة الغرباء.

وطلبت منه خفاً لأغطي به حذائي حتى لا ادنس الأبسطة والحصر، ولكنه اجاب بان هذا ليس ضروريا البته. واحضر لي كرسيا لأجلس عليه. ولكن نظراً لأن هذا بدا غريبا بل مضحكاً في الظروف المحيطة، فقد رفضته مفضلاً الجلوس على احد المسائد. فتبسم الشيخ في خفية، وشعرت بهذا انني استحوذت على عطفه ورضاه بهذه اللفتة البسيطة.

وكان رقيق الصوت خفيضه، وكان قليل الكلام. يتحدث في جمل قصيرة، وكان كل من حوله يطيعونه في غير ما ضجة. وكانوا رهن كلمة منه او اشارة. احسست بانه كان محوطاً باعمق آيات التبجيل.

ونظراً لما كنت عليه من علم سابق بعادات المسلمين واحوالهم،

ولوعي الكامل بأني اتعامل مع شخص ليس هو أي شخص. فاني حرصت على عدم الدخول مباشرة في الموضوع الذى استدعيت من اجله لمجلسه. وتركته يسالني بواسطة سيدي محمد عن اقامتي بمستغانم وعن السبب الذي من اجله نزحت الى هناك وعن المصاعب التي صادفتني، وعن مدى ارتياحي لما وصلت اموري اليه.

في هذه الاثناء احضر احد تلامذته صينية كبيرة من النحاس عليها بعض الكعك، وشايا تفوح منه رائحة النعناع. ولم يتناول الشيخ شيئاً بل دعاني الى شرب الشاي بعد صبه، ثم نطق بالبسملة نيابة عني عندما هممت برفع الفنجان الى شفتي.

ولم يقرر الشيخ ان يتحدث الي في شان صحته الا بعد انتهاء هذه المراسم التقلدية. واخبرني بانه لم يرسل في طلبي لأصف له دواء لحالته، الا انه اردف يقول انه سوف يتعاطى بكل تاكيد اي دواء اصفه له لو اني رايت اي ضرورة ملحة لذلك راو حتى لو اعتقدت ان هذا سوف يعمل على تحسين صحته، ولكنه لم تكن لديه رغبة قوية في هذا. كان يريد ان يعرف بكل بساطة ما اذا كان ذلك المرض الذي الم به منذ ايام قليلة مرضاً خطيراً من عدمه. وقد اعتمد علي في ان اصارحه والا اخفي عنه اي شيء فيما يتعلق بحالته. اما ما عدا ذلك فقد كان في نظر الشيخ قليل الاهمية او معدومها.

وازداد لذلك شغفي واهتمامي بالشيخ. ان يوجد مريض لم يفتنه العلاج والتطبيب، فهذا امر نادر حقاً، ولكن ان يوجد مريض لا يشعر برغبة ذاتية في تحسن حالته، وكل ما يريده هو ان يعرف موقفه من المرض ليس الا. فهذا ما يفوق في ندرته اي شيء اخر.

و شرعت في فحص مريضي بدقة متناهية بينما هو مستسلم لي

برضا بالغ. وكانت ثقته في تزداد كلما ازددت انا دقة وحذراً في فحصه. كان نحيفاً للغاية بدرجة تحمل على الظن بان الحياة في كيانه الواهن كآلة تعمل بسرعة مخفضة. على انه لم يكن هناك خطر شديد عليه. وكان الشخص الآخر الوحيد الذي حضر عملية الفحص هو سيدي محمد الذي وقف، وقد اولانا ظهره ونكس رأسه وهو يتوسط الحجرة في اسى واحترام ظاهرين، وقف يترجم الاسئلة والاجوبة ولكنه لا يرى شيئاً مما يحدث.

و بعد ان فرغت من الكشف عليه، عاد الشيخ الى جلسته السابقة على المساند بينما صفق سيدي محمد بيديه فأحضر الغلام مزيداً من الشاي.

ثم اوضحت للشيخ انه مصاب بنوبة انفلونزا حادة نسبياً ولكن ليس هناك خطر عليه، وان اعضاءه الرئيسية تعمل بانتظام وان من المحتمل ان تتلاشى كل متاعبه تلقائياً في بحر ايام قليلة، وانه على الرغم من استبعاد حدوث مضاعفات له، الا ان امكان حدوث هذه المضاعفات في مثل حالته يستوجب مراقبة المرض بكل دقة، وانه سيتعين علي ان امر عليه ثانية من باب الحيطة.

ثم اعقبت مبدياً رايي في ان نحافته امر يدعو الى الانزعاج مقترحاً عليه ان يزيد في كمية الاكل التي اعتاد تناولها كل يوم. وكنت قد عرفت قبل ذلك اجابة على احد اسئلتي ان غذائه اليومي لم يكن ليتعدى لتراً من اللبن وقليلاً من التمر مع موزة او موزتين وقليل من الشاي.

وابدى الشيخ ارتياحه لنتيجة فحصي وشكرني بوقار معتذرا عما سببه لي من متاعب، واخبرني بانه يمكنني زيارته مرة

ثانية في اي وقت شئت متى وجدت ضرورة لذلك. واما فيما يتعلق بطعامه، فان وجهة نظره في هذا الامر كانت تختلف عن وجهة نظري. ذلك انه كان يعتبر الاكل الزاماً وتكليفاً وكان يسعى جاهداً الى خفض ما يتناوله من طعام الى اقل قدر ممكن (١).

وافهمته انه ان لم يأكل كفايته من الطعام فانه سيزداد ضعفاً وستقل تبعاً لذلك مناعته ضد الامراض في المستقبل. ولما كنت اعرف سلفاً انه قلما علق اهمية تذكر على مثل هذه الامور، فقد اوضحت له انه سيتعين عليه، ان هو اراد ان يطيل عمره او يحفظ على نفسه رمقها ان يحني هامته لمطالب الطبيعة مهما بلغت مضايقاتها.

وترجح لدي ان كلامي هذا اثر فيه تأثيراً كبيراً. ذلك انه ظل سكتا لفترة من الوقت، ثم لوح بيده متهرباً من الموقف وقال وهو يبتسم بلطف : ربنا يسهل.

كان يجلس الآن مثلما كان يجلس عند دخولي، تشع من عينيه نفس النظرة الحالمة. فانسحبت بحذر حاملاً انطباعاتي التي لم تزل محفورة في مخيلتي رغم مرور عشرين عاماً وكان كل شيء حدث البارحة.

---

(١) قال ابن عبد الباري وهو احد تلامذة الشيخ انه سأله ذاة مرة لما لا ياكل سو هذا القدر الضئيل من الطعام ؟ فاجاب الشيخ : ان ذلك مما نجده في نفسي من عدم الدعاية للاكل وليس هو عن تزهد مني كما يظنه بعض الفقراء، وان كنت لا يعجبني التحكم الشره في اتباعنا واستثنائهم بتلوين الاطعمة وما هو على هذا القبيل. (شهائد ٦١١ هامش ٢).

افضت في شرح تفاصيل زيارتي هذه للشيخ لاني اعتقد عن يقين ان الطريقة المثلى لابراز شخصيته هي ان ابدأ بنقل انطباعاتي عن الشيخ عند اول لقاء لنا. وان ما يجعل انطباعاتي هذه جديرة بالاعتماد عليها هو اني لم الم بشيء البتة عن الشيخ قبل هذه المرة

وحاولت ان اعرف شيئاً من امر هذا الشخص العجيب. ولكن احداً لم يستطيع ان يخبرني بشيء على وجه التخصيص. فالاروبيون في شمال افريقيا يجهلون جهلا تاماً تاثير الاسلام على نفوس اهله بدرجة تجعلهم ينظرون الى كل شيخ او مرابط على انه مشعوذ لا وزن له و لا اهمية الا بقدر ما يمكن ان يكون له من نفوذ سياسي. ولما كان شيخنا هذا لا يتمتع بهذا النفوذ المذكور تراهم وقد باتوا على جهل تام بأمره.

وفضلا عن ذلك فاني بدأت بعد ان فكرت في الامر مليا اسائل نفسي : اكنت ضحية تصوراتي وخيالاتي ؟ فربما حملني وجهه هذا الشبيه بوجه المسيح وصوته الرقيق الذي يفيض سلاماً وادبه الجم على اقتراض وجود روحانية في شخصه هي اصلاً غير كائنة فيه.

ربما كان سلوكه ذاك بوجه عام مجرد حركة او وضع اجاد تمثيله بعد ان حسب له الف حساب، حتى اذا ما ترك الانسان السطح المشرق لينقب في القاع لم يجد شيئاً ذا بال.

ومع ذلك فقد بدا لي بسيطاً وطبيعياً بدرجة جعلت انطباعاتي الاولية عنه لا تزايلني بل ان ما تابع ذلك من احداث عمل على تاكيدها.

وذهبت لاعوده في اليوم التالي ولمدة ايام اخر الى ان برىء من مرضه. وفي كل مرة زرته كنت اجده كسابق عهدي به ساكنا في

نفس جلسته يختل نفس البقعة، ولم تزايله نظرته الحالمة ولا تلك الابتسامة الباهتة على شفتيه. كان يبدو وكأنه لم يتحرك بوصة واحدة من ذلك الموضع الذي تركته عليه في اليوم السابق. كان كالتمثال الذي لا يلقي بالاً الى الزمن يمر حوله.

ومع كل زيارة جديدة كان يزداد ترحيباً بي وثقة في شخصي. و على الرغم من ان حديثي معه كان محدوداً وعاماً في موضوعاته، ذلك اذا ما استثنيت الاستفسارات الطبية، فان ثقتي تزايدت مع مرور الايام في ان هذا الرجل الذي اراه امامي ليس بدجال او مخادع. وسرعان ما ربطت بيننا اواصر الصداقة حتى اني عندما اخبرته ان زياراتي له كطبيب لم تعد ضرورة البتة اجابني : بانه سعد بمعرفتي، وانه سيكون من دواعي سروره ان امر عليه من وقت لآخر متى سنحت لي الفرصة بذلك.

وكان هذا فاتحة صداقة بيننا امتدت حتى وفاة الشيخ في عام ١٩٣٤. كنت اراه مرة على الاقل كل اسبوع طيلة هذه الاربعة عشر عاماً. وفي احيان كثيرة كنت اذهب اليه لا لشيء الا لأنعم بالحديث معه، واحياناً كان يرسل في طلبي لاعود احد افراد اسرته ولكني في اغلب الاحيان كنت اذهب اليه لان حالته الصحية المزعزعة كانت تجعله في حاجة دائما لرعايتي.

و شيئاً فشيئاً اصبحت انا و زوجتي من المقربين الى داره واهل بيته. وبعد فترة جعلونا نرفع الكلفة بيننا وانتهى بهم الامر الى اعتبارنا من افراد العائلة. على ان هذا تم بالتدريج وبطريقة لا تكاد تلحظ.

و عندما قابلت الشيخ لاول مرة لم تكن الزاوية الحالية قد

انشئت بعد. وكانت جماعة من الفقراء قد قامت بشراء الارض وقدمتها هدية الى الشيخ كما ان الاساس كان قد تم وضعه. الا ان ما صاحب عام ١٩١٤ من قلاقل واضطرابات اوقف العمل بالمشروع الى ان استؤنف مرة اخرى عام ١٩٢٠ .

والطريقة التي بنيت بها الزاوية المذكورة طريقة بليغة وذات دلالة. فلم يكن هناك مهندس معماري بالمعنى العادي للكلمة او رئيس بنائين. وكان جميع العمال من المتطوعين. وكان الشيخ نفسه هو المهندس المشرف على المشروع. ولا يعني هذا انه وضع تصميماً او عالج مثلثا للرسم الهندسي. وكان يكفي ان يعبر ببساطة عما يريد ليعي البناؤون مراده.

ولم يكن جميع هؤلاء من ابناء المنطقة. فقد وفد الكثيرون من مراكش ومن منطقة الريف بالذات بينما اتى البعض الآخر من تونس. وجميعهم وفدوا بمحض اختيارهم. فقد كان يكفي ان تتطاير الانباء عن قرب استئناف العمل في الزاوية ليبدأ تلامذة الشيخ ومريدوه في شمال افريقيا زحفهم على دفعات بعضها من البنائين والبعض الآخر من النجارين، وغيرهم من قاطعي الاحجار وعمال التراحيل، الى غير هؤلاء جميعاً من اليدويين وقد طوى كل منهم بعض الزاد في منديله وسلك طريقه الى تلك البلدة البعيدة حيث يعيش شيخه ليضع تحت تصرفه عمل يديه. ولم يكن هؤلاء ليقبلوا اجرا على عملهم. كل ما في الامر انهم كانوا يطعمون ويقيمون في خيام اعدت لهم. ثم ان الشيخ كان يجمعهم مع حلول المساء ولمدة ساعة قبل الصلاة ليلقنهم تعاليمه الروحية. وكان لهم في ذلك خير جزاء على عملهم.

وكـانوا يعملون على هذا المنوال لشهرين وفي بعض الاحيـان لثلاثة اشهر، ثم يرحلون الى ديارهم فرحيـن بمـا اسهموا به من جهد في هذا المشروع، راضين بما عمرت به ارواحهم من سكيـنـة وايمان. ثم ان آخرين كـانوا يـأخذون اماكنهم ليرحلوا بدورهم ويحل محلهم جدد يتحرقون شوقـاً الى العمل. ولم ينقطع سيـل المتطوعين. فلم يكن المشروع ليواجه اي نقص في الايدي العاملة، واستمر الحال على هذا لمدة عامين تم بنهايتها ذلك البنيان الشامخ.

وكـان لمـا اظهره هؤلاء الناس من تفـان سافر وبسيط الفضل فيما شعرت به من سعادة باطينية عامرة. كان من الواضح ان العالم لم يزل به بعض المـخلصيـن ممن هم على استعداد لأن يضحوا بكل عزيز لديهم من اجل مثل اعلى ينشدونه. هنـاك شهد النصف الاول من القرن العشرين فورة حماسة دينية كتلك التي اقامت كاتدرائيات العصور الوسطى. فممـا لا شك فيه ان بنـاءها كـان قد جرى على نفس النمط. وكنت سعيداً بـأن اكـون شاهد عيـان مشدوهاً بكل ما حدث.

يـخطر ببـالي ان في الوقت الحـاضر ولـو في اوطاننـا حيث ان الانانية غير خـافيـة، هناك وجود ذوي الارادة الحسنة مجهوليـن هوم على استعداد ليقدموا انفسهم للتضحيـة اذا لزم الامر الى من يريـد يقظتهم وليشع منهم النور ويدفعهم بكـل قواهـم سواء الى غاية ملموسة او الى تتبع اوهام جنونية.

هذه الفكرة هي التي تربطني بالانسانية مع تقديـري الضعيـف لها. غير ان التاريخ يبين لنا مهما كانت بوادر الروحـانية معتبرة ولها روعتها وجمالها ـ لها ايضاً انحرافهـا واخاطرهـا واذا كـان ما هو غير مضر ويعود بالنفع يكـون ايضـاً مـا هو مصدر مصـائب

حقيقيـة وعلى كل حـال فالامر متعلق بصـاحب الامر. واذا كـان صـاحب الامر حكيم وحقيقي بكل معنى الكلمة فلا ينتج الا الخير. ولكن من الممكن ان يكون هو الدجال بنفسه.

—«»—

واذ انتهى العمل بالزاويه ابدى الفقراء رغبتهم في اقـامة حفل كبير بمناسبة افتتاحها فوافق الشيخ بعد ان شعر بالا محيد له عن ذلك

وكنت حينئذ قد عرفته بما يكفي لان اصـارحه بحقيقـة رأيي في اعماله فابديت دهشتي لموافقته على اقـامة هذا الاحتفـال الذي لايليق وعادته، ولا يتفق وما عرف من ميل الى العزلة وانكار الذات

وكان قد استغنى عن اسنعمال ابن اخيه كمترجم في محادثتنـا الخاصة. ومع ذلك فان سيدي محمد كان في متنـاول يده بصفة تكـاد تكون دائمة عند كل اجتماع لي معه. وكنا نتحدث عادة بالفرنسية، ولم يكن سيدي محمد ليتدخل الا اذا وجد الشيخ نفسه عـاجزاً عن ابداء راي معين له باللغة المذكورة.

وعند ما عبرت له عن دهشتي من تصرفه السـابق هز كتفيه هزة خفيفة وقال كلاما بهذا المعنى فلست اجدني قادراً الآن على تذكر كلماته بالحرف الواحد :

ـــانت محق فيما تذهب اليه. فهذه اشياء تافهة لا لزوم لها.

ولكن يجب على المرء ان يتقبل النـاس كمـا هم. فليس كل انسان قادرا على ان يجد منعته وسلواه في التأمل والعقل الخالص. فهولاء محتـاجـون من آن لآخر لأن يجتمعـوا مع غيرهـم حتى يشعروا بان هناك آخرين يشاركون افكارهم. وهذا هو كل مطلبهم في الوقت الحاضر. هذا فضلا عن ان احتفـالهم يختلف عن غيره من

احتفالات المسلمين الاخرى التي لا بد وانكَ قد شاهدت بعضا منها حيث تطلق الاعيرة النارية، ويستعرض ركوب الخيول الى غير ذلك من الالعاب المختلفة والموائد المتخمة. فتلامذتي يفهمون العيد على انه ابتهاج روحاني، وان هذا بكل بساطة ليس الا تجمع لتبادل الرأي وتادية الصلاة الجماعية.

وزال عني شعور النشاز عندما نظرت الى فكرة العيد من هذه الزاوية. واذا حكمنا على الاحتفال بعدد من حضره من تلامذة الشيخ ومريدية نجد انه حقق نجاحاً ملحوظاً. فقد اتى هؤلاء جميعاً من كل فج ومن طبقات اجتماعية متباينة. وكنت قد توقعت استناداً الى ما سبق للشيخ ان افض به لي ان يستغل المتفيقهون والمتحذلقون فرصة الاحتفال هذه ليخوضوا في مشاكل العقيدة العويصة وليستعرضوا قدرتهم على حل الالغاز والنكات.

ولقد اتضح لي صدق ظني هذا عند ما قام سيدى محمد بترجمة بعض المقتطفات من الخطب الافتتاحية خاصة التي القاها تلامذة الشيخ من الشباب. على ان هذا لم يكن اهم ما بالحفل. بل كان المسنون من مريديه وتلامذته الذين لم «ينبسوا ببنت شفة» بل ستغرقهم تأمل مهيب. وراعني على الاخص سكان المناطق الجبلية من اهل الريف وهم ابسط تلامذة الشيخ واكثرهم تواضعا، هؤلاء الذين اقتضتهم مسيرتهم هذه شهراً كاملاً يمشون على الاقدام من نجع الى نجع تذكى جدوة حماسهم تلك النار الباطنية التي كانت تتأجج من مهجهم البسيطة.

رحلوا عن ديارهم يحدوهم حماس شبيه بحماس تلك الطلائع الاولى الباحثين عن الذهب، الا انهم لم يهاجروا مثلهم بحثا عن

مغانم زائلة. بل كان مطلبهم روحانياً، وكـانوا على ثقة من انهم غير مخدوعين وان مسعـاهم لن يخيب. ولقد راقبتهم في سكونهم وصمتهم يتنفسون عبير الجو المحيط بهم وكأنهم غـارقون في بحر من الالوهية لمجرد وجودهم في هذا المكان الذي تحتويهم قدسيته بعد ان تحقق لهم مرادهـم. وقفـوا في حضرة الله وهم مستبشرون راضون عن انفسهم.

وفي احيان اخرى وبعد ساعات من الصمت المطبق كـان تلامذة الشيخ يشرعون في انشـاد اغنية مطولة. ثم انهم كـانـوا يقسمون انفسهم الى مجموعـات دائريـة الشكل، حيث يمسك كل منهم بيد اخيه ويبدؤون في التمايل للامـام والخلف في بطء واقـاعية، وهم يرددون مع كل حركة منهم اسم «الله». وكان هذا يصـاحبه ايقـاع بطيء نسبيا يصدر عن شخص يمكن تشبيهه بقائد الجوقة، يتوسط الدائرة ويعلو صوته على كل من حوله بينما يواصل بعضهم الانشـاد الذي كـان يزداد علواً وقوة فتزداد معه شيئـاً سرعة الايقـاع. ثم يستحيل التمايل البطيء للامام والخلف الى حركة صعود وهبـوط تثنى فيها الركبتان ثم تنفردان فجـأة. وسرعان مـا يأخذ كل من تجمعـوا في حلقة مـن حلاقـات الذكر هذه في التنفس بصعـوبـة وتتحشرج اصواتهم. ويجري الوقـت بسرعة وتعنف حركـاتهم من هبوط وصعود وتغدو عنيفة تشنجيـة. ويصبح اسم الله مجرد نفس يتردد.

ويستمر الوضع على هذا القدر من الشدة والعنف حتـى يصيـر تنفسهم غير مسمـوع بالمرة. وهنـا يسقط بعضهم الـى الارض في حالة اعياء ظاهر.

ومن الجلي ان هذه التمرينات الشبيهة برقصات الدراويش الدائرية كان يقصد بها احداث حالة روحية معينة. ولكني عجبت للعلاقة التي يمكن ان تقوم بين هذه الحركات الخشنة البدائية وما عليه الشيخ من نبل ورقة.

ثم كيف طبقت شهرة الشيخ كل هذه الآفاق ؟ فلم تكن هناك دعاية منظمة. كما ان تلامذة الشيخ لم يحاولوا على الاطلاق تجنيد اشياع جدد له. وما يزال لهم الى يومنا هذا في كل مدينة او قرية تضم عدداً منهم زواياهم الصغيرة المنعزلة، والتي يشرف على كل منها «مقدم» اولاه الشيخ ثقته وخصه بنفوذه. وجميع هذه الجماعات المتآخية كانت تصدف عن كل نشاط خارجي. وكأنهم قد صمموا على الا يدعوا غريباً يشاركهم اسرارهم. ومع ذلك يزداد نفوذ الشيخ مع الايام قوة ويقبل المريدون من كل صوب يلتمسون الانظمام الى الطريقة واخذ العهد على الشيخ.

وذات يوم تفوهت امام الشيخ بما يعبر عن دهشتي بكل هذا، فأجابني قائلاً :

« ان كل من يأتي الى هنا يشغله التفكير في الله »

ثم اردف معقبا بكلمات حقيقة الانجيل :

« انهم يلتمسون طريقهم الى السلام الباطني ».

ولم اجرؤ على مناقشته في ذلك اليوم اكثر من هذا حتى لا ابدو متطفلاً ثرثاراً. على اني تحققت ان هناك ثمة علاقة بين ما قاله لي في ذلك الوقت وبين ما سبق ان سمعت من ابتهلات اشغفتني. كثيراً ما كنت اسمع اثناء حديثي مع الشيخ لفظ الجلالة ينطلق من ركن منعزل في الزاوية في صوت طويل رنان :

« ا لـــلـــــه » !

كلمة كصرخة اليائس وابتهـالة المجذوب يطلقهـا احد تلامذة الشيخ من عزلته وهو رهن خلوته غارق في تأملاته. صرخة تتجاوب اصداؤها لفترة ثم يعم السكون.

« من الاعماق ناديتك يا الهي ».

من الاصقاع السحيقة سأنـاديك يـا الهي عند مـا يلم بي الكرب فقدني الى صخرة النجاة.

وانثـالت على ذاكرتي هذه الفقرات من المزامير. هكذا كـانت ابتهالاتهم صرخة تطلقها روح معذبة الى الله في عليائه.

ولم يجانبني الصواب فيما ذهبت اليه. ذلك لأني عند مـا سألت الشيخ عن معنى ما سمعناه لتونا اجابني قائلاً :

« هذا تلميذ يبتهل الى الله ان يعينه في تأملاته ».

فسألته :

« وهل لي ان اعرف الغرض من تأملاته ؟ »

فأجابني :

« لكي يحقق ذاته في ذات الله ».

وهل ينجح جميع تلامذتك في هذا ؟

لا، فنـادرا مـا ينجح واحد منهم في ذلك. ان هذا وقف على القلة النادرة.

ومـا مصير اولئك الذين فشلوا ؟ الا يصيبهم اليـاس والقنوط ؟

كلا فانهم دائمـا يرقون الى درجة من السمـو تكفي لان ينعموا على الاقل بذلك السلام الباطني.

السلام الباطني. تلك كلمته التي غالبا ما عاد اليهـا. وفيها بلا

شك يكمن سر نفوذه المتشعب. فـأين هو ذلك الرجل الذي لا يطمع بطريقة او بأخرى في ذلك السلام الباطني ؟

وهذا ايضاً يرتبط مع كلمة المسيح حيث قال لبطرس :

فيما ذا انت مشغول ؟

وقد اعتاد الشيخ ان يستقبلني ما دام بصحة جيدة، وذلك باستثناء الشتـاء، في مبنى شبيه (بالفرندة) يقع عند طرف حديـقة صغيرة تحيط بها جدران مرتفعة تذكر المرء بتلك الرسومـات التي تزخر بها المخطوطات الفارسية.

وهنـاك في تلك البقعة الهـادئة بعيدا عن ضجيج العالم الخارجي وبين خفيف اوراق الشجر واغاريد الطيور. كنـا نجلس لنتبـادل الملاحظات تتخللها من وقت لآخر فترات طويلة من الصمت.

وكما يحدث بين الاشخـاص الذين يفهم كل منهم الآخر وتربط بينهم اواصر مودة قوية فان كلينا لم يكن يهتم بما يستغرقنا من صمت بل ان هذا كانت تفرضه في بعض الاحيـان ملاحظة معينة تستدعي التفكير والتأمل. هذا فضلاً عن ان الشيخ لم يسرف قط في استعمال الكلمـات، وعليه فاننـا لم نشعر بحـاجة الى الكلام الا متى كـان لدينا فعلاً ما نقوله.

ودهش الشيخ في باديء الامر لمعرفتي للاسلام رغم ضحالتهـا. فقد كنت على علم على الاقل بمباديء الاسلام واركانه الاسـاسية.

كما اني كنت الم بشيء عن حياة الرسول في خطوطهـا العريضة كذلك تـاريـخ الخلافاء الاوائل. اضف الى هذا اني لم اكن جـاهلاً جهلاً تاماً بأمر الكعبة وبئر زمزم وقصة فرار اسمعيل مع امه هاجر الى الفلوات. وكل هذه الامور بسيطة الا ان جهل الاوروبييـن لها جعل الشيخ لا يخفي عني دهشته لمعرفتي بها.

وادهشني بدوري ما كان عليه الشيخ من اتساع افق وتسامح. وكنت سمعت قبل ذلك ان جميع المسلمين متعصبون لايستشعرون الا الازدراء لكل اجنبي لايدين بدينهم. وقال الشيخ ان الله خص ثلاثة رسل بوصية هم على التوالي موسى وعيسى ومحمد. واستنتج الشيخ من ذلك ان الاسلام اكمل العقائد الثلاثة لان رسالته هي احدث الرسالة الا انه اضاف قائلاً : ان المسيحية واليهودية ايضاً ديانتان منزلتان.

وكان فهمه للاسلام يتميز بنفس التسامح واتساع الافق ولم يكن يصر الا على ما هو جوهري منه، وقد اعتاد ان يقول : يكفي المسلم الحق ان يتمسك بخمس : ان يؤمن بالله، وان يشهد ان محمداً خاتم رسله، وان يؤدي فروض الصلوات الخمس وان يؤتي الزكاة وان يصوم الشهر ويحج الى البيت في مكة.

وكنت اقدر على وجه الخصوص في الشيخ عزوفه عن محاولة استمالة او كسب انصار جدد للاسلام. كنت القي اليه بأسئلتي فيجيبني معبراً عن رايه، غير انه لم يكن يهتم كثيراً بما يمكن ان يكون لرايه من تاثير علي. وليس فقط انه لم يحاول ادني محاولة ان يجعلني اعتنق دينه، بل انه ظل لفترة طويلة غير مكترث بالمرة بأمر عقيدتي الدينية. وكان هذا ايضاً من مميزاته الخاصة، وقد اعتاد ان يعبر عن رايه في هذا الصدد فيقول :

ان من يحتاجني يسعى الي. فلم احاول استمالة الآخرين ؟ ان هؤلاء لا يكترثون للقضايا الكبرى الجديرة باهتمامهم، بل تراهم ينصرفون عنها.

وهكذا لم تختلف محادثتنا كثيراً عن تلك المناقشات التي

يمكن لجاريـن ان يجرياهـا من خلال سور معشوشب يفصل بين حديقتيهما.

ولكن حدث ان تعرضت آرائـي الخـاصة للمنـاقشـة ذات يوم. فدفعه هذا الـى ان يسبـر عوري قليـلا. ربما فكر في هذا من قبل ولم يكن يعرف من اين يبدا حديـثه، وكـان فقط يتحيـن الفرصة المؤاتية.

وواتته الفرصة عند ما بدأنا نتـاقش مـا ادخله زنوج المسلمين من عادات سودانية على الاسلام. فهؤلاء يسيرون في الطرقـات في اوقـات معينة من السنة وامـامهم عجل توجوا هـامنه بـالزهور والشرائط بينما تقرع من حولهم الطبول والدفوف وتصاحب موكبهم الرقصات والاغاني واصوات الصاجات النحاسية . وكنا في هذا الوقت نعيش احدى هذه المنسبات. وهناك حيث جلسنا تحت «الفرانده» عند ذلك الطرف الهاديء من الحديقة، ترامت الى اسمعنـا اصوات بعيدة ومكتومة لاحد هذه المواكب.

ولا ادري لم عقدت مقارنة بين هذه الاحتفـالات وبين مثيلتهـا عند المسيحييـن الكـاثوليك، واضفت بان هذا ليس الا نوعـاً من الوثنية تماماً، كما ان القربان المقدس ليس الا نوعاً من الشعوذة الا اذا نظرنا للامر من ناحية دلالته الرمزية. فقال الشيخ :

ولكنها رغم كل ذلك ديانتك، فأجبته :

هذا صحيح الى حد ما. فقد عمدت عندما كنت رضيعـاً القم ثدي والدتي. الا انه ليس هناك ما يربطني بها بخلاف ذلك.

ـــ وما هي ديانتك اذن ؟

ـــ ليست لي ديانة ! وشمل المكان سكون اعقبه الشيخ بقوله :

ـــ ان هذا لشيء غريب.

ـــ وما وجه الغرابة فيه ؟

ـــ لان امثالك ممن لا دين لهم يتخذون موقفا عدائيا من كل الديانات. وانت لا يبدو عليك انك تفعل هذا.

ـــ انك على حق فيما نقول. الا ان هؤلاء لم يتخلوا عن عقليتهم الدينية المتعصبة فظلو على ما هم فيه من قلق. ولم يجدوا في فقدانهم لايمانهم اي اثر لذلك السلام الباطني الذي تتحدث عنه. بل ان ما حدث هو العكس.

ـــ وانت هل وجدته ؟

ـــ نعم، ذلك لاني تتبعت الامور الى ابعد غياتها، كما اني اقدر كل شيء حق قدره واعمل على ان اضعه في المكان اللائق به.

فتفكر الشيخ لبعض الوقت ثم قال : وهذا غريب ايضاً.

ـــ ما ذا ؟

ـــ غريب ان تصل الى هذا المفهوم عن طريق آخر غير طريق العقيدة.

ـــ اي عقيدة ؟

فندت عن الشيخ حركة غامضة استغرقته على اثرها حالة من التامل المهيب وادركت عدم رغبته في اطالة الحديث فانسحبت.

= ÷ =

وداخلني شعور منذ تلك اللحظة ان اهتمام الشيخ بامري اخذ يزداد. وحتى اللحظة المذكورة لم تكن صداقتنا تتعدى حدود الصداقة العارضة رغم ما كانت تتسم به علاقتنا من مودة والفة.

فهو على الرغم من انه وجد في صاحبا حلو المعشر وقد احبني لذلك، الا اني كنت مع ذلك اجنبياً متنائياً بعض الشيء. وكانت قد مرت سنون عدة قبل ذلك لم اكن فيها بالنسبة اليه سوى نديم مجلس عابر، قليل الخطر في نظره. كذلك المسافر الذي يلتقي به المرء في رحلة الحياة. رفيق السويعات الذي نرضى ان يلازمنا جزءاً من الطريق، لما عليه من ادب وكياسة، ثم ننساه بعد ذلك.

ثم ان محادثاتنا بعد ذلك اصبحت تتخذ لنفسها طابعاً مجرداً. واني اليوم لاستشعر الندم من كل قلبي، لانني لم ادون هذه المحادثات الرائعة في حينها بما كانت تزخر كلماتها بمعان دفينة والتي اعرف الآن انها كانت تصلح لان تكون وثيقة اعتز بها كما يعتز بها غيري من الناس. غير اني في ذلك الوقت لم اعلق عليها تلك الاهمية التي اكتسبتها في ذاكرتي بمضي الزمان.

وعليه فاني لن استطيع ان اقدم سوى لمحات خاطفة من مقابلاتنا واسلط الضوء على نقطة او نقطتين علقتها بذاكرتي مما جرى بيننا من حديث خلالها. وفي احيان كثيرة كان حوارنا يقتصر على بعض الملاحظات التي تتخللها فترات صمت طويلة وفي احيان اخرى كان الحديث بيننا يقوم اساساً على ما اقدمه من توضيحات لوجهة نظري بناء على طلب الشيخ الذي اصبح الآن يوجه الاسئلة ولم نتجادل قط. ذلك لان محادثتنا لم تتخذ طابع المساجلات التي يحاول كل طرف فيها اقناع الآخر بصحة وجهة نظره. كان حديثنا عملية تبادل ومشاركة في الرأي ليس الا.

وهكذا عرفت كيف اشرح له موقفي من الدين. وقلت له :

انه لما كان كل فرد منا يقلقه لغز وجوده ومستقبله، فاننا نحاول

كل على طريقته اجاد التعليل الذي يرضينا ويريح ضمائرنا. وانه ما دامت الاديان تقدم لمعظم الناس حلا يرضيهم فاي حق لي في اقلاق راحة هؤلاء الذين وجدوا في الدين تلك السكينه الروحانية التي ينشدونها ؟ هذا فضلاً عن انه مهما اختلفت الوسائل وتعددت الطرق فان من ينشد هدوء البال من البشر يجد نفسه مضطراً لان يتخذ من عقيدة ما نقطة بداية له. حتى طريق العلم وهو الطريق الذي سرت انا فيه نجده يقوم اساساً على عدد من الافتراضات التي يعتبرها الناس من البديهيات التي لا تقبل النقاش، هذا بالرغم من ان احداً لا يستطيع في واقع الامر اثبات صحتها. واينما نظر الانسان فثمة عنصر من الايمان كبر او صغر. الحق الوحيد هو ما اعتبره المرء حقاً. كل واحد منا يسلك الطريق الذي يوافق هواه، فاذا وجد فيه بغيته دل هذا على ان طريقه هو الطريق السوي. والطرق كلها سواسية.

وهنا استوقفني الشيخ قائلاً :

ـــ لا... ليست جميعاً متساوية.

ولم اتفوه بكلمة وانتظرت توضيحه الذي جاء فيه.

ـــ هي متساوية لو انك تقصد بذلك راحة النفس. الا ان في ذلك درجات متباينة، فالبعض يكفيهم النذر البسيط ليرتاح فؤادهم بينما يجد البعض الآخر في الدين ضالته، وهناك من يطلبون اكثر من هذا. فلا يكفي ان ينعموا براحة البال او بأن هناك تلك الراحة الكبرى التي يصحبها هدوء الروح.

ـــ وما ذا عن الدين ؟

ـــ ان الدين بالنسبة لهؤلاء ليس الا نقطة البداية.

ـــ وهل يوجد ما هو فوق الدين ؟

ـــ فوق الدين توجد العقيدة.

وكنت سمعته قبل ذلـك يستعمل هذه الكلمة «العقيدة» ولكنـي كنت كلما سألته عن معناها يحجم عن الاجابة. فحاولت مرة اخرى على استحياء. وسألته :

ـــ اي عقيدة ؟

ورد علي في هذه المرة قائلاً :

ـــ انها وسيلة الوصول الى الله ذاته.

ـــ وما هي تلك الوسيلـة ؟

فغمرني بابتسامة تفيض بالشفقة وقـال :

ـــ ولم اخبرك ما دمت لا تميـل الى الاستفـادة منهـا ؟ لو انك اتيت الي كواحد من تلامذتي لما بخلت عليك بالاجـابة. ولكن اي فائدة ترجى من اشباع فضول كسول للمعرفة ؟

= ÷ =

ودهش الشيخ كثيراً لاستطـاعتي ان اعيش في هدوء وسكينـة استناداً مني على ان نهايتي هي الفناء التـام الذي لا بعث بعده. ذلك لانه كان قد ادرك مدى اخلاصي. وشيئـاً فشيئـاً عند مـا كـان يرجع الى نفس المـوضوع بين فترة واخرى تمكنت من ان ادخل في روعه ان سكينتي مبعثها التواضع لا الكبرياء. وان قلق الانسـان ينبع اسـاسـاً من رغبته في الخلود بعد الموت مهمـا كلفه ذلك من شطط، وان السكينة لن توافينا الا اذا تخلصنا كلية من هذه الرغبة في الخلود. وجد العـالم قبلي وسيبقـى موجوداً بعدي، ولم تكن

الحيـاة بالنسبة لي اكثر من تسلية لا اعلم لم وكيف دعيت اليهـا. تسلية لم ادرك معنها، هذا لو كان لها فعلاً اي معنى. على ان هذه التسلية لم تكن تخلو تمـامـاً من طرافة. وهذا هو السبب في اني فضلت ان اولي بصري نحو الطبيعة بدلاً من ان اوجهه شطر الافكار المجردة. وعند ما يصبح لزامـاً علي ان اهجر هذه التسلية فـاني سأفعل ذلك آسفاً لاني وجدت فيهـا ما يشوقني. ولكن هذا كله بلا شك سينتهي بـأن يضجرنـي. هذا فضلاً عن انـي في جميع الحلات غير مخير. وماذا يهم ! عند ما تنسحق نملة فالعالم يستمر في سيره وكأن شيئاً لم يحدث البته. فقال الشيخ :

ـــ ان ما تقوله يصدق بلا شك على الجسد ولكن ماذا عن الروح ؟

ـــ حقاً هناك الروح ايضا، التي هي وعينا او ادراكنـا لذواتنا. لكنها لم تولد معنا. فقد نمت بنمو احساستنا الجسدية. ونحن انما اكتسبناها على مراحل وبالتدريج تبعا لزيادة معرفتنا. نمت الروح مـع الجسد وكبرت معه ونضجت بنضجه، فهـي كمجمـوع الافكـار المكتسبة، ولطالما فشلت في ان اقنع نفسي انهـا يمكنهـا ان تعمر بعد ذلك الجسد الذي تدين له بوجودها.

وحلت فترة صمت طويـلة خرج الشيخ على اثرهـا من نـأملاته وهو يقول :

ـــ هل تريد ان تعرف ما يعوزك ؟

ـــ فأجبته نعم. ما ذا ؟

ـــ ان تصبح واحداً منـا لترى الحق جل جلالـه. انت تعـوزك الرغبة في ان ترتفع بروحك الى ما فوق مستوى ذاتك. وهذا مـا لا يمكن علاجه.

وسألني ذات يوم بصراحة تامة قائلاً :

ـــ هل تؤمن بالله ؟

ـــ نعم... اذا كنت تعني بقولك هذا المبدأ الغامض الذي يتوقف عليه كل شيء والذي يخفي بلا شك على الوجود معناه.

وبدا عليه انه اقتنع باجابتي فأردفت قائلاً :

ـــ غير ان المبدأ المذكور بعيد المنال، صعب الادراك. وانه لمما يدهشني ان اجد كثيرا ممن يدعون التمسك بأهداب الدين، بل ويعتقدون انهم فعلا متدينون ويؤمنون بخلودهم في ذات الله. اراهم رغم كل هذا يعلقون اهمية كبرى على وجودهم الدنيوي. فهم ليسوا منطقيين ولا صادقين مع انفسهم... فلو اني وثقت من الحياة بعد الموت لأضحت هذه الحياة في نظري قفرا من كل ما يشدني اليها ولا صبحت غير عابيء بها بالمرة. اعيش عمري اترقب تلك الحياة الاخرى، ولكنت مثل فقرائك اكرس جل نفسي للتأمل.

ونظر الي الشيخ برهة كما لو كان يقرأ افكاري ثم لاقت عيناه عيناي في نظرة نافذة تجاوزتهما الى اعماقي وقال ببطء :

ـــ من المؤسف حقاً ان لن تدع روحك تسمو الى اعلى من ذاتك ولكنك مهما قلت ومهما تخيلت فانت اقرب الى الله مما تظن.

= ÷ =

عند ما نطق الشيخ بهذه الكلمات كان يضرب في طريق الموت. فقد انهكه ما قام به من حج لبيت الله في مكة. تلك الحجة التي كان يصر على تأديتها قبل وفاته والتي اتبعها بزيارة فلسطين وسوريا كان ضعيفاً للغاية ولكن عقله كان ما يزال نشيطاً.

وفي نفس الوقت توفـي سيدي محمد ابن اخت الشيخ الذي كـان يشغل وظيفة المقدم وخلفه في عمله صهره المتزوج ابنة اخت الشيخ العلاوي هو سيدي عدة بن تـونس، كـان الشيخ ينزلـه من نفسه منزلة كبرى من الحب والاعزاز.

ولم يخف سيدي عدة قلقه عني. ومنه عرفت ان الشيخ اخذ يسلم نفسه الى حالات من التامل لم يكن يخرج منها الا كرهاً وانه لا ياكل شيئـاً في واقع الامر وعلى الرغم من اني عنفت الشيخ واستعطفته الا انه لم يزد الى ان جاد علي بظل ابتسامة وقال برفة :

ـــ وما الفائدة ؟ ان الساعة دانية.

ولم يكن عندي ما اجيب به عليه.

وبدأ الفقراء ينظرون الي نظرة خاصة ادركت منها انهم يحاولون ان يستشفوا رايي عن صحة الشيخ. وقليلاً ما كنت اراهم في العادة. ولكنهم كانوا على علم بامري، وكان لمـا اظهره الشيخ حيالي من صداقة كل الفضل فيما خصوني به من طيبة وحسن معـاملة. ولكنهم مع ذلك ظلوا متعـالين بعض الشيء، وقـارب بيننـا شعورهم بان سيدهم في خطر محدق. وطمأنتهم بابتسـامة مني. فقد كنت على ثقة في واقع الامر من ان الشيخ سيبقى متمسكـاً بالحياة مـا دامت به ذرة من القوة ولا يعني هذا انه كان على استعداد لان يجاهد في سبيل استبقـاء الحيـاة. ولكنه كـان قد عود جسده على ان يقنع بالقليـل حتـى اعضائه ظلت تعمل في سرعة مخففة. وكنت اعرف انه سيظل يعيش على ذلك النذر البسيط من القوة الجسمانية التي ما كـانت لتكفي اي انسـان اخر كل هذه المدة، وانه سيعمل على ان ياتي على آخر نقطة من الزيت في مصباح حيـاته، ذلك المصباح

الذي عمل هو ان يمسي نوره خافتا حتى استحال قبسا من الضوء تلفه ظلمة الليل. وكان هو يعرف ذلك مثلي تماما. ونادراً ما كان الشيخ يقدمني الى اي من الفقراء الا من انتمى الى اصل غربي، وكان هؤلاء في حقيقة الامر يحجون الى الشيخ من وقت لآخر. غير ان علاقتي بهم كانت محدودة. ولما كنت غريباً عن طريقتهم جاهلاً بأسرارها. فاني لم اتحدث لغتهم وشعرت بانه سيكون تطفلا مني ان اسالهم عما دفعهم الى هذا الطريق. وكان بين هؤلاء شخصيات مرموقة مثل ذلك الفنان المعروف (عبد الكريم جوسو) الذي لم اتوقع ابداً ان اتعرف عليه بهذه الطريقة. وعند ما انضم الفنان المذكور الى الطريقة اتخذ من لباس المسلمين رداء له. وقد لاق الزي عليه حتى ان المرء ليخطئه فيظنه شيخاً من شيوخ المسلمين. وقضى الفنان ثمانية ايام في الزاوية في صحبة عضو من هيئة محكمة تونس وسيدة. وكلاهما كانا مثله من ابناء الطريقة ومحبوبين للغاية.

وكان هناك الى جانب هؤلاء امريكي مفلس لا يعرف احد كيف وصل الى مستغانم. اصابه المرض بعد فترة من مجيئه وارسل الى المستشفى ومنها اعيد الى بلده.

كان هناك من المسلمين ممن انهم ليسوا بفقراء ياتونني ويسألون عن صحة الشيخ فكنت احظى بثقه كاملة عندهم لاني كنت اظهر لهم غير متعال ولا متنازل مثل ما يتظاهر به الاروبيون حسب اعتيادهم معهم، ومع ذلك لم اتظاهر لهم بالفة في غير محلها عكس ما يظن البعض انه يلزمهم استعمالها لاسترضائهم. وفي الحالتين كان الجواب من المسلمين عدم مراعاتهم لهم. والحال المعتبر عندهم والاليق ان يبقى المرء في مكانته ويحافظ على

منزلتـه ويكلمهم بدون تكبر ولا خشـونة ويعرف كيف يظهر وده وصداقته لهم بدون ان يكون اليـف. فهذه اللطـائف يشعرون بهـا ويتأثرون لها جيداً. فان من الموظفين الذين لم يسـاعدهم الحظ من كانت لهم تجربة مرة في هذا الميدان.

فهذه خصوصاً هي مسالة عدم اللياقة من طرف الاروبويين وعدم الكيـاسة، يضاف اليه جهلهم التـام بدين الاسلام وهو شيء يجعل التفـاهم معدومـاً بين الطرفين. الاوربوي معجب بعطفة التفوق ويظن انه ملكة له بلا ريـب وفي كل الميـادن. الاوروبـوي يجرح عواطف المسلم بتلك المظاهر بدون ان يشعر بذلك. وحتى اذا اراد ان يظهر الصداقة لهم فهـو مسـيء بظنه انه متفـوق عليـه وكذلك بملاحظاته في غير محلها. لم يكن هنـاك نفور ولكن عدم التفـاهم الناشيء عن جهل. فلكي يكون التقارب ممكنـاً يلزم الاروبوي ان يجعل في ذهنه ان للمسلمين تقـاليد وعوائد وهم متمسكون بها ـ تقاليد محترمة مثل ما لنا. وبلا شك هي اقدم من تقالدينـا بكثير. اذا وقع الانتقـاد عليهـا او الاستهزاء بهـا او الضحك امـام المسلم مضيفنا. فهذا يدل على سوء التربية. فـالمزار اذا لم يقل شيئاً فهو لا محالة يعتقد ويظهر له فبحسن الحظ يوجد ما هو شذوذ الا انهـا شذوذ فقط. واما من جهة المسلمين على العموم يظهر عليهم انهم على جانب عظيم من الاهتمام بالتحفظ ورفع الهمة. لاحظت دائماً في الاعياد الرسمية فرايت الرؤساء المسلميـن الذيـن لبوا الدعوة للحضور فيها انهم كـانوا على سلوك مشرف لهم وحسن. وبالعكس في الاستقبالات التي ينظمهـا اولائك الرؤسـاء اتيح في رؤية نسـاء الموظفيـن يرفعن احواتهن بالسخرية ما يجعلهن انفسهن اضحكة، يتحركن، ينبئن بعضهن بعضـاً بلا مبلاة، يضحكن ضحك ازدراء عند

ما يشاهدن ما يفاجيء امخاخهن الحقيرة العصفورية وقصاري العقول ـ فان تصرفاً كهذا فلا يقبلن ان يشاهدن سلوكه في بيوتهن. ازعجت كثيراً من هذه المشاهد حتى اتخذت موقفاً ان لا اجيب الى كل دعوة للحضور عند شخصيات مسلمات يحضرها الاوروبويون.

فمن هؤلاء احد من ينتسب الى الطبقة السامية ذكر لي يوماً. فكان يحدثني عن الشيخ فيظهر انه كان في صغره تلميذاً لصناعة الاحذية. في الحقيقة انه عمل يشرفه !

ـــ فكيف لك ان تهتم بصحبة هذا الحذاء القديم ؟

فقلت له : انسيت ! انسيت ان المسيح كان تلميذاً للنجارة ! انت المسيحي تتحدث مثل المنافق !

فذهب محاوري بدون ان يزيد قولاً.

وظل الشيخ يتحدث الى تلامذته على الرغم من ضعفه المتزايد الا انه اضطر الى اختصار مدة جلساته. وغدا قلبه ضعيفاً غير منتظم الدقات... ولاقيت صعوبة كبرى في اقناعه بضرورة تعاطي المنبهات اللازمة لاعادة النشاط الى قلبه الواهن. ولحسن الحظ فان ما قدمته اليه من جرع طفيفة كان كافياً لان يؤثر في كائن عضوي لم يتعرض من قبل لافساد تجره على المريض عادة كثيرة تعاطي الادوية. وهزنا في عام ١٩٣٢ خبر تعرضه لنوبة قلبية خفيفة اسدعيت في اثرها على عجل فلما وصلت اليه كان نبضه لا يكاد يسمع، وبدا عليه انه فقد كل وعي بما حوله. واستطعت بحقنه في الوريد ان اعيده الى وعيه، عندئذ فتح عينيه ونظر الي معاتباً وهو يقول :

ـــ لم فعلت هذا ؟ كان ينبغي ان تدعني ارحل. فمن العبث

استبقائي اي فائدة ترجى من ذلك ؟ فاجبته :

ـــ اذا كنت بجانبك فهذا لان الله شاء ذلك. وما شاء الله ذلك الا لكي اقوم بواجبي نحوك كطبيب.

ـــ فقال : حسناً... ان شاء الله.

وبقيت معه بعض الوقت ارقب نبضه مخافة ان يتعرض لنكسه. ولم افارقه الا بعد ان بدا عليه انه اجتاز نقطه الخطر المحقق.

وتلا هذا نذر اخرى، ومع ذلك ظل الشيخ على قيد الحياة يكبو ثم ينهض قرابة عامين آخرين. وكان اذا تحسنت صحته نسبيا عاد الى مزاولة نشاطه المعتاد وكأن شيئاً لم يحدث. الا انه كان يبدو عليه دائماً انه يترقب بلهفة. وان يكن في صبر، نهايته المحتومة.

ولم تكن حياته الباطنية الجياشة لتكشف عن ذاتها الا في تعبيرات وجهه. وبدا جسده وكأنه دعامة متآكلة توشك في كل لحظة ان تستحيل رماداً تذروه الرياح.

وذات صباح ارسل يستدعيني. كانت حالته تبدو للجميع وكانها ليست بأخطر مما كانت عليه في اليوم السابق او اليوم الاسبق ولكنه قال لي :

ـــ اليوم سينتهي كل شيء عدني بألا تتدخل وان تترك الامور تاخد مجراها.

فقلت له ان حالته ليست اسوأ مما كانت عليه. ولكنه الح قائلاً :

ـــ انني على يقين ان كل شيء سينتهي اليوم ويجب ان اتركه وشاني حتى اعود الى الله.

وتركته متأثراً لما قاله غير اني بقيت مع ذلك في ريب من امره. فلطالما رايت حياته تتعلق بخيط من غير ان ينقطع الخيط مرة

واحدة حتى ظننت ان الامر اليوم لن يختلف عما مضى.

ولكن الصورة كانت قد اختلفت تماماً عند عودتي عصر ذلك اليوم كان يتنفس بصعوبة ولم استطع عد نبضه. وعند ما شعر بأناملي تتحسس معصمه فتح عينيه وعرفني فتمتم قائلاً :

ـــ هأنذا ارسل اخيراً الى حيث استريح في جناب الله.

ثم انه اطبق على يدي في وهن واغمض عينيه. كان هذا هو الوداع الاخير. وعرفت انه لم يعد لي مكان هناك. فقد اصبح منذ تلك اللحظة ملكا لفقرائه الذين كانوا ينتظرون في خلفية المكان. وانسحبت مخبراً سيدي عدة اني رايت الشيخ لآخر مرة. وعرفت ذلك المساء انه قضى بعد ساعتين من رحيلي في رفق وبلا ضجة تذكر يحيط به تلامذته ممن كانوا يعيشون بالزاوية او يقيمون فيها.

وهكذا اتى الشيخ على آخر نقطة زيت في مصباح حياته.

لقد حاولت هنا ان اقدم فكرة عامة عن الشيخ العلاوي. واني على يقين من ان هذه الرواية ينقصها الكثير غير اني حرصت على الا اسرد شيئاً لا اثق بصحته تمام الثقة. وبعض الملاحظات التي استشهدت بها في معرض روايتي هي نفسها الكلمات التي نطق بها الشيخ بالحرف الواحد. وهناك ملاحظات اخرى لا استطيع ان اجزم ان كان الشيخ استعمل نفس التعبير الذي سقته او غيره الا اني استطيع القول بأن المعنى العام لكلمات الشيخ. لم تخرج عما ذكرت في الملاحظات المذكورة. ولقد كان من السهل على ان ازخرف واعمق هذا الموضوع ولكني فضلت ان اركن الى ما تعيه ذاكرتي من معلومات جافة وثقت منها.

وانـــى لاشعر ان هذا ســـاعد على ابراز شخصية الشيخ وجعلهـــا اكثر وضوحاً وصدقاً. هذا فضلاً عن ان تصويري لشخصية الشيخ اتسم بـــالموضوعية وعدم التحيز، وخلا من كل مـــا يمكن ان يلجـــأ اليه تلامذة الشيخ من تنميـــق وخلع هـــالة معينة على شخصيته. وهي صورة كافية في ذاتها وربما استمدت بعض قوتها من شخص المصور الذي يعتبر واحداً من الكفار. ولقد تحـــاشيـــت ان اقحم اي تقويم شخصي لمذهب الشيخ ولو ان رايي في مثل هذه المسائل كان سيصبح غير ذي موضوع. ذلك ان كل ما قصدت اليه هو ان اعرض انطباعاتي عن الشيخ كما عرفته، لا ان اناقش افكـــاره. واني اعرف جيداً ان المذهب المذكـــور مذهب خـــاص ولمـــا كنت لا انتمي الى طريقة الشيخ فان افكاري عنه لا بد وان تكون غامضة مشوشة. وربما تبسم بعض تلامذة الشيخ وخاصته عند قراءتهم لبعض انطباعـــاتي هذه. ولكنهم سيشكرون اخلاصي وما استطعت من بساطة وصراحة. ومن المؤكد انهم سيلاحظون كذلك اني لم استعمل قط كليمة الايمـــان في روايتي ... واني لاتذكر يوم قلت للشيخ ان ما يمنعني من ان ارقى بروحي الى ما فوق ذاتي هو بلا شك ضعف ايماني. فاجابني بقوله :

ـــ ان الايمان لا بد منه للاديان. ولكنه لا يصبح ضروريا بالنسبة لاولائك الذيـــن يطون الى تحقيق ذواتهم في ذات الله. عندئذ تغني عن التصديق او الايمان الرؤية. فلن تكون به حاجة لان يصدق عندما يرى الحق جلا وعلا.

طنجة ماي ١٩٤٢

مرسل كاري